المحاضرة الثانية: الإشكال النظري للإبداع.

مراجع المحاضرة:

* ابن طباطبا: عيار الشعر
* ابن قتيبة: الشعر والشعراء.
* عبد الله العشي: أثر أزمة المحدثين في مفهوم الإبداع في النقد العربي القديم.

الإشكال النظري للإبداع في النقد العربي القديم:

1. التعصب للقديم: يعدّ التمسك بالقديم، والتعصب له واحدا من الإشكالات التي طالت الإبداع العربي القديم، فقد ألزم النقادُ المبدعين بالدوران في فلك الأقدمين. فهذا ابن قتيبة الذي قال في مقدمة كتابه؛ الشعر والشعراء:" ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصَّ به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كلّ دهر" لكنه يرتدّ عن هذا القول بعدها، ويلزم الشّعراء المحدثين بالسّير على نهج المتقدّمين وطريقتهم في نظم الشّعر، واتّباع موضوعاتهم ومعانيهم التي جروا عليها. وقد قال بعد أن عرض منهج القصيدة القديمة:"...وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيّد البنيان، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يَرِد على المياه العذاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة"

هذه دعوة للتمسك بالقديم، وإنكار على المحدثين أن يأتوا بتشبيه، أو استعارة، أو كناية مما لم يألف العرب استعماله في أشعارهم. وبلغت هذه الدعوة مداها في وضع نظرية في الإبداع الشعري - هي خلاصة استقراء النقاد لنماذج الشعر القديم- سميت؛ نظرية عمود الشعر. وإلزام المبدعين بالنسج على منوال المتقدمين، يوقعهم في التكرار الممقوت، ويخلق هوة سحيقة بين إبداعاتهم وبين عصورهم.

وقد أدى الالتزام بقواعد نظرية عمود الشعر، إلى وقوع الشعراء المحدثين في إسار تجارب الأقدمين فاجتروا موضوعاتهم، ومعانيهم، وصورهم، وطريقتهم في بناء القصيدة، وهذا أوقعهم في فخ السرقات. فراح النقاد يتتبعون استعارات المحدثين من القدماء ويعيبونهم فيها.وهو ما عمق من محنة الشعراء المحدثين. وقد عبر عن هذه المحنة ابن طباطبا في قوله: " المحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم، لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح وحلية لطيفة وخلابة ساحرة، فإن أتوا بما يقصر عن معاني أولئك ولا يربي عليهم، لم يتلق بالقبول وكان كالمطرح المملول"

وحتى يحدّ النقاد من محنة الشعراء المحدثين، اقترحوا تحويرا في مفهوم الإبداع، يتمثل هذا التحوير في استغلال المادة التي توارد عليها الأقدمون ، وتوليد معاني أخرى منها. وهنا يأخذ الإبداع مفهوم التوليد. وهو" أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه أو يزيد فيه زيادة، فلذلك يسمى التوليد وليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره، ولا يقال له أيضا سرقة إذا كان آخذا على وجهه....

وإن كان التوليد قد خفف على المحدثين محنتهم، لكنه أوقع الإبداع في إشكال آخر هو؛

1. محاكمة الإبداع والمبدعين بالنظر إلى المعاني الجزئية: باقتراح التوليد، أصبح الإبداع محصورا في المعاني الجزئية، فأصبح الشاعر لا يقيم في تجربته الإبداعية كاملة، بل من خلال الجزئيات التي يضيفها إلى المعنى الذي اجتلبه من التجارب الأخرى، والعكس هو الصحيح، لأنّ إبداع الفنان، شاعرا كان أو غير شاعر تجسده التجربة كلها، وان العناصر المستعارة ، تتفاعل مع العناصر الأصيلة في الذات المبدعة، بحيث يصعب فرزها وتتوحد التجربة الإبداعية في شكلها النهائي.
2. ارتباط مفهوم الإبداع بالشكل: اقترح النقاد حلا للإبداع، مؤداه أن يجتهد المبدع ليورد المعاني المستعارة في غير حليتها الأولى، ويبرزها في كسوة غير كسوتها، سالكا في إخفائها ضروبا شتى من الحيل لتبدو للمتلقي وكأنها جديدة مبتدعة. قال ابن طباطبا:" وإذا تناول الشاعر المعاني التي قد سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب، بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه...ويحتاج من سلك هذه السبيل إلى ألطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعاراتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها، فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه، فإذا وجد معنى لطيفا في تشبيب أو غزل استعمله في المديح وإن وجده في المديح استعمله في الهجاء، وإن وجده في وصف ناقة أو فرس استعمله في وصف الإنسان، وإن وجده في وصف إنسان استعمله في وصف بهيمة...وإن وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام أو في الخطب والرسائل، فتناوله وجعله شعرا كان أخفى وأحسن، ويكون ذلك كالصائغ الذي يذيب الذهب والفضة المصوغين فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه، وكالصباغ الذي يصبغ الثوب على ما رأى من الأصباغ الحسنة"

أصبح الإبداع قرين الاجتهاد في تغيير الطلاء الخارجي وتجويده، وإحكام الحيلة في ستر المعاني المجتلبة والتجربة الفنية ليست مجموعة من المعاني المتناثرة التي يجتلبها المبدع من هنا وهناك. وأمام هذه الأزمة، ارتبط مفهوم الإبداع بالشكل، بسبب اعتماد الكم في استخدام البديع معيارا للتمييز بين القدماء والمحدثين. وهو ما تجلى في كتاب ( البديع ) لابن المعتز الذي لاحظ أن القدماء كانوا أسبق إلى اصطناع فنون البديع، وأن ديدنهم فيها كان الاعتدال والاقتصاد، أما المحدثون فتوسعوا فيها وأفرطوا.

وهنا تبنى النقد أحيانا الكم في استخدام المحسنات البديعية معيارا للإبداع. وكان أبو هلال العسكري شديد الإعجاب بالشاعر يشبه" أربعة أشياء بأربعة أشياء في بيت واحد" أو ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء في بيت واحد، أو تشبيه خمسة أشياء بخمسة أشياء في بيت واحد. وهذا جعل الإبداع يقع في فخ الشكل، وينحصر مفهومه في البديع خاصة مع نقاد القرون الثلاثة التالية للقرن الرابع. هذه الفئة جعلت همها التعلق بما في شكل العمل الادبي من محسنات، فراحت تفرع البديع فروعا كثيرة، فاتخذت من البديع مقياسا لجودة الأدب شعره ونثره.